

الفصل السادس

آسيا العربية : الآشوريون والكلدانيون بلاد آشور القديمة ومناضولها البفريون

يحملنا الفصل الثانى من تاريخ بلاد الرافدين إلى أعلى النهر ، فنترك بابل ونذهب إلى الزاوية الشمالية الشرقية من تلك الصحراء التى تحيط بالهلال الخصيب ، فنجد هناك مرتفعا من الأرض يسهل الدفاع عنه ، ذا موقع منيع لا ييسر للمدن التى تحيط بها الأرض المسطحة فى سهل شنعار .

تلك هى المنطقة التى يحدها نهر دجلة فى الشرق ، وتشرف على الصحراء فى الغرب والجنوب ، وكان اسمها آشور Assur ومن ثم أصبح اسم المملكة كلها أرض آشور Assyria فيما بعد .

ونظر الوقوع آشور فى منطقة جبلية مرتفعة فإنها كانت تتمتع بجو أصح من جو بلاد بابل الحار . وكان فيها أودية خصبة التربة تمتد بين ثنايا الجبال الشرقية والشمالية حيث كانت توجد بعض مدن تتنافس فيما بينها . وفى هذه المنطقة نرى مرتفعات جبلية كانت محاجر صالحة لقطع الحجر الجيرى والمرمر وغيرها من الأحجار الصلدة ، وفى هذا الأمر اختلفت آشور كثيرا عن بابل التى لم يكن بها أحجار للبناء ولهذا اقتصر فى عمارتها على البناء بالطوب اللبن .

كانت تلك الأودية الشرقية خضراء بما فيها من المراعى وحقول القمح والشعير ، وكانت قطعان الماشية والضأن والماعز تنتشر على جوانب التلال ، وكانت الحمير هى الحيوانات الأساسية لحمل الأثقال والانتقال من مكان إلى آخر ، لأن الحصان لم يكن قد عرف فى ذلك الوقت ، وهنا - فى هذه المنطقة - عاش السكان على الزراعة وتطورت حياتهم فى ظلالها ، ولكن لم يمنع ذلك سكان بلاد آشور من أن ينشئوا

قبل وقت طويل بعض الصناعات ويؤسسوا الصلات التجارية .

لم يكن سكان هذه المنطقة الواقعة إلى الشمال من بلاد بابل من الأصل السامي جميعاً بل كان يعيش بينهم أقوام يتكلمون لغات غير سامية ومن أجناس غير سامية ففي الألف الثالث قبل الميلاد كان يعيش في المكان الذي تقوم فيه مدينة أشور بلدة سومرية عثر على آثار أهلها هناك ، وفي الوقت عينه كان أجداد القوم الذين يسمون الآشوريين يعيشون أيضاً في تلك المنطقة ولكننا لا نعرف من أين جاءوا ولا نعرف إن كانوا من الجنس السامي أو من جنس غيره ، ولكننا نعرف أنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم لغة سامية قريبة من اللغة التي كان يتكلمها أهل أكد حيث قامت أول مملكة سامية قوية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بقيادة الملك سرجون .

وبدأت أشور كغيرها من جاراتها السامية في الجنوب دويلة مستقلة وكانت متأثرة بالحضارة السومرية ، واتصلت بغيرها من مدن السومريين ، وكتبوا لغتهم بالكتابة المسمارية ، كما أثرت بلاد سهل بابل على سكان أشور في فنون النحت والعمارة .

نرى من ذلك أن أكثر مظاهر الحضارة المبكرة في أشور جاءت إليها من الجنوب ، ولكن يجب ألا ينسينا ذلك أنها كانت معرضة أيضاً لتأثيرات من الشمال ومن الغرب ، فمنذ منتصف الألف الثاني ق . م . ظهر في آسيا الصغرى أقوام من الخيتين محبوبون للحرب ، اتجه بعضهم شرقاً إلى بلاد النهرين ، وليس بمستبعد أن أشور كانت إذ ذاك في مهب الرياح فتارة تخضع لغزاة من الغرب ، ثم لاتلبث أن تقع تحت حكم الدويلات الجنوبية التي تزعمها سرجون ثم ملوك أور ثم حمورابي أو غيره من حكام بابل .

وعلمت هذه الحروب المستمرة أهل أشور كيف يحمون حدودهم في الشمال

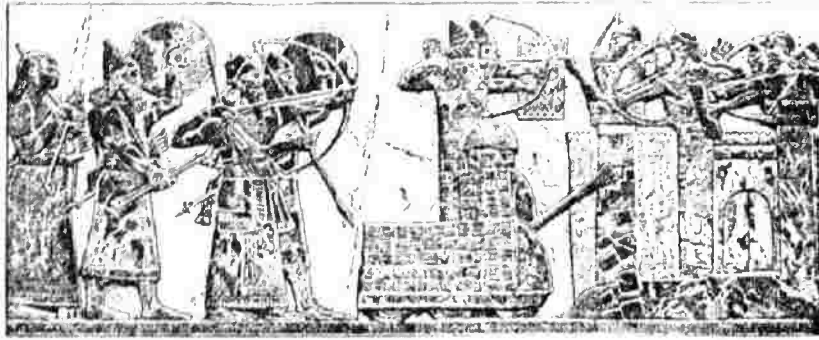
والجنوب بعد أن ظلوا نحو ألف عام منذ أن استولى سرجون على بلدهم ، ولسنا ندهش بعد ذلك إذا رأينا الدولة الجديدة تبنى نفسها على أساس حربى فقد كان هناك الجنود غير النظاميين ثم حل محلهم جيش دائم أصبح القوة الرئيسية للحكومة ، وتطورت هذه الدولة الحربية إلى تنظيم قوى ثابت لم تؤثر عليه المنافسات التى كانت بين الدويلات ، تلك المنافسات التى أضعفت مملكة بابل ثم انتهت أخيرا بالقضاء عليها .

وبعد أن زال كل أثر المنازعات صار فى استطاعة مملكة آشور أن توجه جميع قواها التى توحدت للقضاء على أعدائها الخارجيين ، وساعدهم على ذلك أنهم كانوا قد استخدموا الخيل ثم المركبات فى جيشهم ، وفى النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية رآها العالم القديم .

وفى نفس الوقت أغدقت التجارة وصلاتهم بالشعوب المجاورة الأموال والقوة على الأمة الناشئة . وكانت قوافل تجارتهم تذهب إلى آسيا الصغرى (كليكيا) لأنهم أحبوا الاتجار فيما تدره مناجم الفضة ، وعرفوا بذلك طرق التجارة فى البلاد الواقعة إلى الغرب منهم وأصبحت آشور مركزا هاما على طريق القوافل الذى ربط بين البلاد الجبلية إلى الشرق منهم وبين البلاد الواقعة إلى الغرب منهم . وكان التجار الآشوريون قد حذقوا أساليب التجارة التى وصلت بها دويلة « أور » إلى مستوى عال فى عهد ملوك سومرواكد . وعاش كثيرون من تجار بلاد النهرين فى محلات أسسوها فى أماكن متعددة فى جنوب شرقى آسيا الصغرى فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم « كاپادوسيا » Cappadocia حيث كشفت الحفائر عن عدد كبير من الوثائق التجارية فى هيئة رقم مكتوبة باللغة المسمارية شبيهة برقم آشور ، ونعرف من هذه الرقم أن هؤلاء التجار الغرباء الذين وفدوا من الشرق كان قد مضى عليهم أكثر من مائتى سنة فى تجارتهم فى كاپودسيا أى أنهم بدأوا فى الوقت الذى زادت فيه سطوة ملوك سومرواكد . وسنرى فى الفصول القادمة كيف لعبت هذه المراكز التجارية

دوراً هاماً في حمل الحضارة ونشرها في البلاد الواقعة إلى الغرب ، ففي كثير من المدن التي في جنوب شرق آسيا الصغرى نرى رقم التجار الآشوريين ، وهذه الرقم أصبحت في دراساتها بمثابة علامات توضح لنا الطرق التي سارت فيها الحضارة من بلاد النهرين متجهة نحو جنوب شرق أوروبا .

وأدى استغلال مناجم الفضة في كليسيا خدمة كبيرة للتجارة والمعاملات وأثر عليها أثراً كبيراً لأن الفضة حلت محل الحبوب كوسيلة للتبادل ولدينا ما يثبت أن بعض القطع المعدنية كانت مختومة بما يدل على وزنها وربما مكان إصدارها أيضاً . وفي نص من النصوص يقارن الامبراطور الآشوري ستخریب



شكل : ٤٧ - ملك آشوري يهاجم إحدى المدن المحصنة (القرن التاسع ق م)
يرجع تاريخ هذا الرسم البارز إلى القرن التاسع ق م . ونرى فيه كيف وفق الآشوريون إلى أجهزة الحصار . ونرى على اليمين مدينة تحميها أسوار مبنية بالطوب اللبن . ويبدل الرماة الذين يدافعون عن المدينة جهداً كبيراً في صد هجوم منجنيق محمول على مركبة ذات عجلات ، ولا نرى في الصورة من تلك العجلات إلا الجزء الأسفل أما باقيها فإنه مغطى بصفائح المنجنيق . وهذه الآلة الحربية ليست إلا « دبابة » قديمة يحمي مقدمتها ثور من المعدن وفي الجزء الأمامي منها برج للمهجوم يكاد يصل ارتفاعه إلى ارتفاع أسوار المدينة ويهاجم الجنود الآشوريون الذين في البرج أعداءهم ويرمونهم بما لديهم من سهام أو رمماة بينما يحرك الجنود الآخرون الذين في داخل الدبابة ذراع المنجنيق المصفح بالمعدن ليحدثوا به ثغرة في السور . ويحرك عمليات الهجوم ضابط يجلس في برج المراقبة الذي يعلوه قبة مصفحة بالمعدن وفي تلك القبة طاقات صغيرة لينظر منها . وفي المؤخرة نرى الملك الآشوري يطلق سهامه على المدينة .
وهذا الرسم من أقدم الرسوم التي وصلت إلينا من قصور ملوك آشور . وهذا هو السبب في أن الفنان لم يراع النسب في الرسم ، وغالى مفاولة الاطفال فرسم الرجال وكأنهم بلغوا في الطول أسوار المدينة .

الذى عاش فى القرن السابع ق . م صب بعض النقوش البرونزية ، بصب قطع وزن كل منها نصف «شكل» مما يدل على أن الآشوريين كانوا يسكون القطع ذات نصف الشكل قبل سنخريب ، وتلك القطع كانت دون شك الأصل السابق لعملتنا النقدية .

كانت آشور تعلق أهمية كبرى على صلتها بالغرب ، فلم تكن فى حاجة إلى المعادن فى تلك البلاد فحسب بل أنها لم يكن فى استطاعتها أن تحكم آسيا الغربية ، وهى دولة لاشواطىء لها ، إلا إذا وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن كانت هناك عقبتان تحولان بين آشور وبين ذلك البحر ، أولاهما مملكة ميتانى التى كانت إلى الشمال الغربى من آشور ، وثانيهما الولايات الغنية التى كانت تهتم بالتجارة وكانت تحكم موانئ الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

ويجدر بنا أن نتحدث باختصار عن هاتين العقبتين لأن ذلك يكشف لنا عن حركتين كبيرتين لقومين من جنسين مختلفين ، كان وجودهما سببا فى توجيه تاريخ العالم المتمدن .

تكونت الطبقة الحاكمة فى ميتانى من مجموعة من قوم جريئين يحتمل أنهم كانوا بدوا نزلا من المراعى الشمالية وكانوا أحفادا لأوائل الناس الذين تعلموا تربية الخيول ، إذ عرف أولئك الأجداد كيف يربون الخيول ويمرنونها على الحرب وعلى جر المركبات الحربية قبل أن يترك أحفادهم بلادهم فى الشمال وينزلون إلى الهلال الخصيب ، ولهذا كان ميسورا لبعض فرسانهم المهرة أن يندفعوا جنوبا أو غربا ويهزموا من وقف فى طريقهم من سكان منحى نهر الفرات . واهتم أولئك الناس بتربية الخيول إلى درجة أن أحد الفرسان الذين اشتهر أمرهم بينهم واسمه كيككولى Kikkuli كتب مؤلفا وشعرا لمن يربى الخيول ، وقد عثر فى عاصمة خيتا على جزء من هذا المؤلف على رقم من الطين ، وهو دون شك أقدم ما وصل إلى أيدينا من مؤلفات عن تربية الخيول .

وظلوا في أرض الفرات يحكمون البلاد، وكانوا أقدم ارستوقراطية بناها أهلها على تربية الخيول ، وفي النهاية جعل فرسان ميتاني من أمتهم ولاية حربية لها خطورتها .

كان استخدام الجواد بدءاً لعصر جديد في بلاد الهلال الخصيب ، فعندما كانت تهجم فرقة من العربات تجرها الجياد القوية السريعة وتنزل كالصاعقة على الجنود المشاة فإنهم كانوا يتفرقون كأوراق الخريف ، وهكذا استطاع حكام ميتاني بواسطة مركباتهم الحربية أن يصلوا في انتصاراتهم في الشمال الغربي إلى اختراق حدود « خيتا » .

ولم تقف أهمية ميتاني إلى ذلك الحد بل إن موقعها الجغرافي ساعدها على الوصول إلى أهداف أخرى . فإنها كانت ملتقى الطرق التجارية ودروب القوافل التي تبدأ من آشور وتعبّر الفرات في طريقها إلى الغرب . فلم يكن موقع ميتاني يجعلها عقبة كأداء فحسب بل إن ذلك ساعدها على غزو بلاد آشور فاحتلتها ، وكان الآشوريون مدى فترة من الزمن خاضعين لحكمها .

لم يكن الزعماء الميتانيون — بما لديهم من قوة لاستخدامهم الخيل — إلا في الطليعة لهجرات كبيرة قام بها الأقوام الهندو — أورييون متجهين نحو الجنوب ونحو الغرب وانتشروا من الهند حتى الجزر البريطانية .

ونحن نعلم أن شعب ميتاني كان يحكم في منتصف الهلال الخصيب حوالي عام ١٥٠٠ ق . م . وأن الميتانيين كانوا شعباً يمت بأصله إلى الدوحة التي تتفرع منها بعض الشعوب الأوربية وأنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة الشبه ببعض لغات أوربا .

واستقر بعض القبائل الهندو — أورية في آسيا الصغرى بين الاناتوليين القدماء ، أما الميتانيون أنفسهم فكانوا سدأ منيعاً في وجه تجارة آشور نحو الغرب مدى

قرن من الزمان بل ووصل بهم الأمر أن أوقفوا توسع آشور بوجه عام .
أما العقبة الثانية في توسع آشور نحو الغرب فهي وجود سلسلة من المدن
الفينيقية على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . ووجودهم في تلك المنطقة
هو أقدم مظاهر تجمع الأجناس الذي كان السبب الرئيس في تشكيل التاريخ الإنساني
ابتداء من ذلك الوقت ، إذ نرى الهندو - أوريين في الشمال والساميين في الجنوب
وبينما كانت أقدم النقط الإمامية للشعوب الهندو - أوربية كانت في مملكة خيتا
في آسيا الصغرى وفي بلاد ميتاني على الفرات ، نرى أن توسع الساميين أوصلهم
إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إذ أصبحت موانئ ذلك البحر التي
كانت يوماً من الأيام في أراضى البدو الساميين قد أصبحت سلسلة من الدريالات
الغنية ذات التجارات الواسعة في البحار ، ومكنتهم أساطيلهم من أن يصبحوا من
ذوى الزعامة التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط كله ، وأثبتت تلك المدن
الفينيقية أنها عدو ملوك آشور لا يستهان به .

وبعد القرن السادس عشر ق . م . كان على الآشوريين أن يواجهوا الأخطار
الناجمة عن هجرة جديدة لأقوام ساميين سواء في الناحية التجارية أو في الناحية
السياسية .

وأعظم هؤلاء الأقوام أثراً هم الأراميون ، الذين نراهم حوالى عام ١٢٠٠ ق . م .
قد أسسوا عدداً من الممالك المزدهرة في الغرب وخاصة في سوريا ^(١) . واستطاعت
تلك أن تبني مدناً ملكية ذات قصور فخمة بما تيسر لها من أثر الحضارة الحيثية من
جهة والحضارة المصرية من جهة أخرى . وإلى جنوبي المنطقة التي استقر فيها
الإراميون ، أى في فلسطين كان قوم ساميون آخرون - وهم العبرانيون - بدأوا

١ - كثيراً ما يسمى الأراميون بالآشوريين . وتسمى المنطقة الواقعة شمال فلسطين عادة باسم سوريا .
وعلى أى حال يجب ألا نخلط كلمتى « سوريا وسوريين » (Syria, Syrians) بكلمتى « آشور
وآشوريين » (Assur, Assyrians)

يحتلون الأراضي ويستقرون فيها . وفي أوائل سنى الألف الأول ق . م . كان الإراميون والعبرانيون ، ومعهم الفينيقيون الذين على الساحل احتلوا الجزء الأكبر من الطرف الغربى للهلال الخصيب وابعدوا بين بلاد آشور وبين ساحل البحر الأبيض المتوسط .



شكل : ٤٨ - كتاب آشوريون وأراميون يسجلون الغنائم المسنولة عليها
من إحدى المدن الآشورية (القرن الثامن قبل الميلاد)

يركب الأسرى من نساء وأطفال فوق عربات تجرها الثيران فى طريقهم الى الرق فى بلاد آشور ، ويسوق أحد الرعاة القطعان التى استولوا عليها . والى اليسار يقرأ ضابط آشورى من رقيم فى يده ، مذكراته عن الغنائم التى استولوا عليها فى المدينة ، ويقف أمامه كاتبان يدونان ما يقول . ويسمك أول الكاتبين فى يده بنوح سميك من الطين (= رقيم) رفع منه القلم الذى يقبض عليه بين أصابع يده اليمنى . أما الكاتب الثانى فإنه يقرء فوق يده اليسرى قرطاسا من البردى يكتب عليه بقلم فى يده اليمنى . وهذا الكاتب الثانى أرامى يكتب باللغة الآرامية بالقلم والحبر . ويمثل هذان الكاتبان طريقتى الكتابة اللتين كانا سائدتين فى ذلك العهد فى غرب آسيا ، أحدهما الطريقة الآشورية وهى الكتابة على الرقيم التى كانت فى طريقها الى الزوال والثانية الطريقة المصرية أى استعمال الورق والحبر والقلم التى أخذت تعم .

وامتد نشاط التجار الآراميين إلى خارج بلادهم ، وذهبت قوافلهم إلى جميع البلاد الواقعة على الخليج الصحراوي حتى وصلوا إلى منابع نهر الدجلة وأخيراً أصبحت تجارة غرب آسيا في أيديهم . وكثيراً ما يعثر الباحثون على وزاناتهم البرونزية بين خرائب نينوى مما يدل على وفرة عدد التجار الآراميين في الاسواق الآشورية ، وكانوا مثل أقاربهم اليهود في الأمم الحديثة المتحضرة ، أصحاب النفوذ والزعامة التجارية في عصرهم ولكن اليهود الحاليين يختلفون عن الآخرين في أنهم يعيشون كأمة واحدة مثل الآراميين .

كان الآراميون جنساً ذا حظ عظيم من الحضارة . وفي عام ١٠٠٠ ق . م . بل وربما قبل هذا التاريخ بعدة قرون — كانوا يستعملون كتابة ذات حروف أبجدية تعلموها من الكنعانيين أو الفينيقيين ، وهذه أقدم أنواع الكتابة التي استعملت حروفاً أبجدية فقط^(١) وتعلم الآراميون من المصريين استعمال القلم والخبر وهي أشياء لاغنى عنها في استعمال الأبجدية الجديدة . وكما كانت قوافل البابليين تحمل الرقم المسماة إلى جميع بلاد آسيا الغربية ، فإن قوافل الآراميين بدأت تحمل إلى كافة أنحاء تلك المنطقة المطالبات التجارية والإيصالات محررة بالأبجدية الجديدة التي أخذت تحتل مكان العلامات المسماة .

وهكذا انتشرت الأبجدية الفينيقية — الآرامية في جميع بلاد آسيا الغربية ، وذهبت من الفرات إلى إيران بل وصلت إلى حدود الهند وأمدت شعوب شرقي الهند بالأبجدية السنسكريتية Sanskrit . وبهذا كان للآراميين فضل نشر تلك الأبجدية الشرقية الأصل في كتابات جميع أبجديات الأمم المتحضرة الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند .

١ - كان هذا صحيحاً قبل اكتشافات رأس شمرا في شمال سوريا (المغرب)

وحمل التجار الآراميون لغتهم (اللغة الآرامية) معهم أينما ذهبوا فانتشرت تدريجياً حول الخليج الصحراوي ، ومن الحقائق الهامة أن اللغة الآرامية انتشرت في المدن الآشورية القديمة حتى أصبح المتكلمون بها أكثر عدداً ممن يتكلمون اللغة الآشورية نفسها .

وعندما كان يتلقى تاجر أرامي رقياً عليه بعض ما يتعلق بعمله التجاري محرراً باللغة الآشورية ، فكثيراً ما كان يمسك بقلبه ويخط عليه مذكرات بالآرامية ، وقد عثر الأثريون على كثير من هذه الرقم الآشورية التي خط عليها أصحابها مذكرات بالآرامية في خرائب المباني الآشورية ، وانتهى الأمر بأن اللغتين الآشورية والآرامية أصبحتا تستعملان جنباً إلى جنب في الأعمال التجارية ، واستخدمت الحكومة عدداً من الكتبة الآراميين في الوظائف ، وكان من الأمور المألوفة جداً أن يرى الإنسان موظفاً أرامياً في الحكومة الآشورية . يكتب سجلاته على البردي يسطر ما يشاءه بالقلم والحبر بينما يكتب زميله في العمل سجلاته على رقيم من الطين .

وأخيراً أصبحت الآرامية لغة الهلال الخصيب كله ، وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين . وهي لغة شقيقة ومشابهة للآرامية — وأصبحت لغة التجار الآراميين بعد مضي عدة قرون اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويهرده عصره في فلسطين . ووصلت هذه اللغة أيضاً إلى بلاد خيتا إذ عثر في ساردس Sardes في غرب آسيا الصغرى على شاهد قبر عليه نقش باللغة الآرامية ، وفي نهاية الأمر انتشرت حضارة الآراميين التجارية انتشاراً واسعاً وتركت وراءها مؤثرات خلدت على الأيام أكثر مما تركته دولة آشور الحربية

وما يدعو إلى الأسف أن أكوام المدن الآرامية في سوريا لم يتم حفرها كلها بعد ، ولهذا لم يصل إلى أيدينا إلا آثار قليلة لتحديثنا عن تاريخ تلك المدن .

وما زالت دمشق حتى الآن أعظم المدن السورية إذ يبلغ تعداد سكانها أكثر من مائتي ألف شخص . ولكن بقايا المدينة الآرامية ما زالت تحت بيوت المدينة الحالية . ومن المستبعد جداً أن يكشف أحد عن دمشق القديمة .

ونحن نفهم الآن كيف وقف الجيش الآشوري ينظر إلى تلك الصفوف المتراسة من الدول المعادية ، وكيف رأى نفسه في موقف يفت في عضد أية أمة مهما تحملت بالشجاعة ، فكان أمامهم مباشرة حكام ميتاني ثم الآراميون والفينيقيون ، وخلف هذه الشعوب قوتان عظيمتان ، مصر في الجنوب الغربي وخيتا في الشمال الغربي .

ففي القرن الخامس عشر ق . م . كانت الإمبراطورية الخيتية منافساً قوياً لمصر . ووقف الآشوريون ينظرون إلى الصراع بين هاتين القوتين على امتلاك الطرف الغربي من الهلال الخصيب إلى أن انتهت المعركة بينهما في القرن الثالث عشر ق . م . دون نصر حاسم لأحدهما .

ورأى الآشوريون كيف أنهكت الحروب قواهما ، وما جاء عام ١٢٠٠ ق . م . حتى ضعفت كل منهما وزاد في ضعفهما غزو آخر جديد هدد كلا منهما فانهارت إمبراطورية خيتا وتلتها الإمبراطورية المصرية بعد نصف قرن من الزمان .

ورأت ميتاني في البداية أن مصلحتها تقضى في انضمامها إلى جانب مصر ولكنهم لم يتحمل الثبات في مهب المنازعات الدولية الكبيرة وانتهى الأمر بسحقها ، وكان المتنافسون في حلبة الشرق الأدنى ثلاثة هم مصر وأشور وخيتا ، وكان تنافس ثلاثتهم قوياً عنيفاً ، ولم يأت عام ١١٥٠ ق . م . حتى كانت القوتان الغريبتان قد انسحبتا من الميدان تاركتين آشور وحدها لتصبح الوارثة لإمبراطورية الشرق .

وبعد أن سقطت كل من ميتاني ومصر وخيتا ، بقي الفينيقيون والآراميون وجها لوجه أمام آشور . وكانت دمشق مقر الملوك الآراميين الأقوياء الذين

جمعوا ثروات طائلة من التجارة ، وحصنوا مدينتهم تحصينا جعلها قادرة على الوقوف في وجه أى تقدم آشورى نحو البحر الأبيض المتوسط . ولنضرب مثلاً لتوضيح أثر قوة هؤلاء الملوك وهو نجاح دمشق في حماية مملكة كتي العبرانيين الصغيرتين لمدة طويلة من الزمن من غزو الآشوريين .

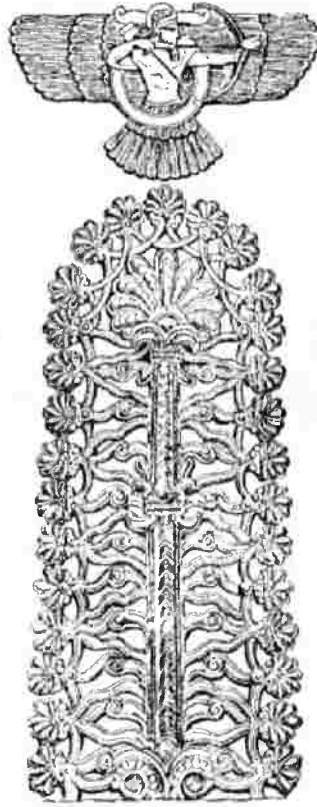
سارت الجيوش الآشورية وعبرت الفرات حوالى عام ١٥٠٠ ق . م ووصلت إلى البحر الأبيض المتوسط حوالى عام ١١٠٠ ق . م . ولكن ظل ملوك آشور مدى ثلاثة قرون ونصف قرن عاجزين عن غزو وإخضاع هذه المنطقة الغربية إخضاعاً تاماً بسبب وجود الممالك الأرامية والفينيقية والعبرية ، فتمد وقفت هذه الممالك في وجه الجيوش الآشورية حتى القرن الثامن ق . م .

وبعد عام ١٠٠٠ ق . م . بقليل ، كانت قوة آشور على وشك أن تبدأ في تكوين إمبراطوريتها ، وانقطف الآن قليلاً وننظر إلى الوراء لنستعرض ما أحرزته آشور من تقدم في مدى ألفى سنة ، كانت أولى آلات الآشوريين المعدنية مصنوعة من النحاس مثل باقى الشعوب القديمة . وخلال الألف الثالث ق . م . استعمل الآشوريون البرونز بكثرة وبدأوا منذ ذلك التاريخ يصنعون من هذا المزيح المعدنى أدواتهم وأسلحتهم حتى عام ١٠٠٠ ق . م . تقريباً ولهذا كانت أسلحة الجنود الآشوريين الذين ساروا للحرب نحو الغرب قبل الألف الأول ق . م مصنوعة من البرونز ، ولكنهم استعملوا بعد ذلك التاريخ أسلحة من الحديد .

كان الحديد معروفاً للإنسان منذ عصر ما قبل الأسرات ، وعثر على أداة منه مدفونة بين أحجار هرم الجيزة الأكبر ، فقدما أحد العمال القدماء الذين كانوا يعملون في بنائه ، ولكن ظل استعمال الحديد نادراً حتى اكتشف الخيتيون مناجمه وطريقة إستخلاصه وصناعته في الشمال الشرقى من آسيا الصغرى . ووزع ملوك خيتا هذا المعدن في جميع بلاد الشرق الأدنى ابتداء من القرن الثالث عشر ق . م .

ومن ذلك نرى أنه في القرون القليلة التي تلت عصر الحديد (Iron Age) أخذت آشور تستعد لتوسعها نحو الغرب ، وكان استعمال الحديد في أدواتها الحربية عنصراً هاماً في نجاحها في الحروب .

ولم يقتصر فضل الغرب — وبخاصة الحيثيين — على الآشوريين في تعريفهم ومدمهم بالمعادن بل أنهم قدموا للحياة الآشورية أشياء أخرى من مقومات الحضارة ، فمثلاً تعلم الآشوريون من الفن الحيثي الذي كان في شمال سوريا ، كيف



شكل : ٤٩ - رمز الاله آشور

فوق الرسم الآشوري لشجرة الحياة نرى في أعلى الرسم قرص الشمس المجنح الذي استعاره الاله آشور كرمز له من الفن المصري ونرى الاله يرمى الأعداء بسهامه وتحت رمز الاله ، نرى رمز شجرة الحياة التي جعل منها الفنان الآشوري رسماً مزخرفاً لنخلة تقوم في الوسط ويتفرع منها الجريد وأوراقه وخاصة في الجزء العلوي ، وضفروا الأوراق على الجوانب أيضاً في شكل متناسب جميل وأخذ اليونان هذا الرمز عن الآشوريين واستعملوا هذا الرسم كثيراً فيما بعدهم في فنهم .

يقصون أعمال الملك وما أتاه من شجاعة في صورة كبيرة منقوشة على أحجار عظيمة من المرمر كانوا يضعونها في صفوف لتزيين جدران القصر .

وكذلك كان الحال في العمارة . فقد كان لوجود الحجر في آشور أثر ممكن الآشوريين من الآتيان بما لم يستطعه البابليون في أرضهم غير الجبلية . وضع الآشوريون لمبانيهم أساسات ضخمة من الحجر كما كان يفعل الخيتيون والسوريون من قبلهم ، أما الأبنية نفسها فاستعملوا في بنائها الطوب متبعين في ذلك ما كان يفعله البابليون من قبلهم .

واقتبس الآشوريون من أهل بابل كثيرا من القصص الدينية ورموز الآلهة فقلدوها ودرسوها واحترموها ، ولكنهم لم يفرطوا في إله قبيلتهم القديم — الإله آشور — الذي أطلقوا اسمه على مدينتهم وعلى قبيلتهم .

وعندما كان الآشوريون في مجموعهم زراعا يعملون في الأرض ، وذلك في أوائل أيامهم ، ظنوا أن إلههم آشور إله الزراعة التي تحيا ثم تموت ثم يكتب لها الخلود مثل الإله أوزيريس في مصر .

ومهما كان الأمر فإن شجرة الحياة كانت أقدم رمز للإله آشور ، وكان الآشوريون يقيمونها ويزينونها عند حلول فصل الربيع كما نفعل بعامود شهر مايو (May hole) . وعندما أصبحت بلاد آشور فيما بعد أمة حربية رأوا في إلههم آشور إله حرب لا يرحم واعتقدوا أنه هو إله الشمس . فكان هذا الإله يقود الملوك الآشوريين إلى النصر ويطلق سهامه القاتلة على العدو فيفتك به . أما الرمز الخاص به فإن الآشوريين نقلوا الشمس المجنحة عن الخيتيين الذين كانوا في شمال سوريا ، والذين نقلوها بدورهم من مصر .

وكانت الإلهة «عشتار» هي أعظم الإلهات في آشور ، فكانت الهة الحب . وقد أخذوها عن البابليين .

لم يكن للديانة بين شعب آشور ذى النزعة الحربية القوية ، إلا أثر قليل على أخلاق الناس . وكان الآشوريون فى ذلك مثل من سبقهم من البابليين ويرجع السبب الأكبر فى ذلك إلى أن كلا الشعبين تشابه فى عقيدته عن الحياة الأخرى وأنهم لم يؤمنوا بأنه سيكون هناك حساب فى الآخرة . أما موتاهم فكانوا — مثل البابليين — يدفنونهم تحت أرضية المنازل التى كانوا يعيشون فيها .

وكشفت الحفائر فى مدينة آشور عن عدد من الاقبية المبنية بالطوب تحت أرضية القصر الملكى ، ووجدوا فى تلك الاقبية أجزاء من توابيت حجرية كبيرة الحجم ، وتلك التوابيت هى بقايا أقدم المقابر الملكية التى ظهرت حتى الآن فى بلاد آشور ، لأن جثث ملوك آشور الاقوياء كانت موضوعة فى تلك التوابيت ، أولئك الملوك الذين عاشوا وحكموا وبنوا هناك قبيل نهاية ألى سنة من التطور الذى مهد لظهور الامبراطورية الاشورية .

وفى خرائب المدينة الملكية التى عاش فيها الملك سرجون الثانى (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) عثرت بعثة المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاغو على رقيم مسمارى فيه جدول بأسماء ملوك آشور وعددهم مائة وسبعون. حكم أولهم فى أواخر الالف الثالث ق.م. وبدأ كاتب هذا الجدول يدون سنى حكم كل ملك ابتداء من أحد الملوك الذين حكموا فى أوائل الالف الثانى قبل الميلاد ، وعندما يتم نشر هذه الوثيقة نشر أعليا صحيحاً سيكون لدينا تقويم دقيق إلى حد لا بأس به مدى خمسة عشر قرناً من التاريخ الآشورى .

الإمبراطورية الآشورية

بينما كان هدف التوسع الآشوري الأول هو إخضاع الغرب بغية الحصول على موقع حصين على البحر الأبيض المتوسط . وأملا في السيطرة على الطرق التجارية بين الشرق والغرب ، فطالما أجبرت الأمم المجاورة المعادية التي تقطن الشمال والشرق والجنوب الملوك الآشوريين على أن يعيشوا بقواتهم وجيوشهم إلى هذه المناطق . وخلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م . كان الصراع محتدماً بين الإمبراطوريتين المصرية والحيتية حول احتلال مركز الصدارة في الغرب ، ولكن الحكام الآشوريين رأوا أن يظلوا في الشرق ، وحاولوا أن يقفوا موقف آشور هناك . بيد أنه عندما وجه الآشوريون أنظارهم ثانية إلى التوسع والغزو صوب الغرب ، كانت قوة آشور في الشرق في خطر دائم ، ومن ثم اضطر الملوك إلى أن يقوموا بحملات تأديبية ضد بابل وعيلام . والولايات الصغيرة في جبال زاغروس ، أو أورارتو Urtu في شمال أرمينيا . وفي خلال القرنين الحادي عشر والعاشق . م . أصاب آشور انهيار وانحلال نتيجة لغزو قام به الآراميون الذين كانوا يقطنون الطرف الشرقي للملال الخصيب . ولكن ما أن حل القرن التاسع حتى كانت جيوش آشور بدأت تسير للحرب . وعندما شرعت الإمبراطورية الآشورية في وضع خططها للتوسع تجاه الغرب موضع التنفيذ ، أنشأت الممالك الغربية أحلافاً عدة لصد تقدم الغزاة من الشرق . بيد أن دمشق ، أعم مدينة في الغرب والمدينة التي طالما كانت في مقدمة المدن التي قادت المقاومة ، سقطت عام ٧٢٢ ق . م . ولم تلبث البلاد الغربية أن أخضعت إخضاعاً تاماً وأصبحت تحت سلطان الإمبراطورية الآشورية .

وفي وسط الحملات الغربية . وأثناء حصار السامرة ، تلك المدينة العبرية المنكودة

توفي الملك الآشوري (٧٢٢ ق . م) وعند ذلك آل العرش لابنه ، الذي تلقب عندما تولى العرش باسم سرجون تيمنا باسم سرجون السامى الذى كان أول الحكام العظام لبابل ، والذي حكم قبل ذلك بألفى سنة ، ووصلت الإمبراطورية الآشورية على يد سرجون هذا الذى نعرفه باسم سرجون الثانى إلى ذروة مجدها وغاية سطوتها كإمبراطورية عسكرية . وكان خلفاؤه أعظم الأباطرة الآشوريين (١) ، وبني سرجون الثانى قصرأ ملكيا جديدا فى شمال شرق نينوى . وكان هذا القصر أكبر القصور التى عرفت أسيا إلى ذلك الحين وأكبرها اتساعا وأعظمها رونقا وبهاء .

ولقد أطلق عليه اسم دورشاروكن (dur-Sharrukin) (سارجونبرج Sargonburg) وكانت مساحة فنائه ميلا مربعا ، تكنى لإيواء عدد من الشعب يبلغ تعدادة ثمانين ألفا ، وأما مبنى القصر نفسه فكان يشغل مساحة خمسة وعشرين فدانا . وهذا ما لم تحط به بابل فى أوج عظمتها وازدهارها إذ لم يكن لها مركز للحكم مثل هذا ، وهكذا أصبحت آشور من نواح متعددة سيدة بلاد غرب أسيا .

ولكن عظمة سرجون الثانى هذه كانت دون مجد ابنه سنحاريب الذى كان سياسيا من أعظم ساسة الشرق الأدنى القديم . وكان اسمه ذاتعا مرهوباً بين شعوب البلاد التى فى أسيا الصغرى ، إذ قام بحملات نهب فيها مدينة تارسوس والحصون الإغريقية الأيونية التى تقع فى أقصى الشرق وكان ذلك بعد

١ - أهم ملوك أسرة سرجون الثانى هم :

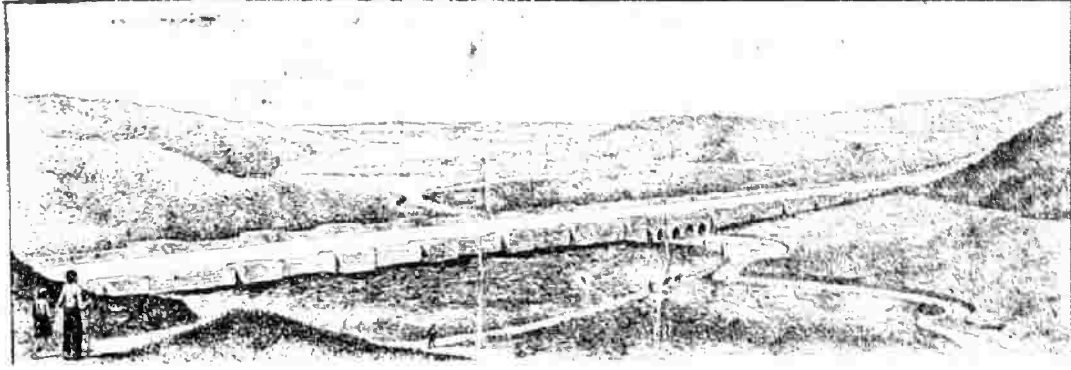
٧٢٢ - ٧٠٥ ق . م	سرجون الثانى Sargon II
٧٠٥ - ٦٨١ ق . م	سنحاريب Sennacherib
٦٨١ - ٦٦٨ ق . م	إسرحدون Esarhaddon
٦٦٨ - ٦٢٦ ق . م	أشوربانيبال Assurbanipal

(ويطلق عليه الإغريق ساردانابالSardanapalus)

عام ٧٠٠ ق م بقليل وبعد ذلك أخذت حملاته تتقدم نحو الجنوب ، فاستولت على المدن الفينيقية الساحلية التي تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحدود المصرية . وفي الواقع قضى وباء على جزء عظيم من جيش سنحاريب ، جاءهم هذا الوباء من مستنقعات الدلتا . ذلك الوباء الذي نظر إليه العبرانيون على أنه ملاك الرب (يهوى) وهذا هو السبب في أن سنحاريب لم يعبر حدود مصر بيد أنه اتخذ سياسة حازمة قوية عنيفة إزاء مدينة بابل ، عدوته القديمة . إذ كانت هذه المدينة تقوم بثورة بعد أخرى مما جعل سنحاريب يصمم على القضاء على مدينة حموراني قضاء مبرماً ، بل لم يجد بأساً من أن يحول مجرى إحدى القنوات لتغمر أطلال هذه المدينة التي فر عنها أهلها فأضحت أطلالا فوق أطلال .

وهكذا باتت بابل أثرا بعد عين . ولكن القوة التي تكمن في النيل ظلت مصدر خطر على التوسع الآشوري . فكانت جميع الولايات التابعة للامبراطورية الآشورية تزرع تحت عبء باهظ من الجزية التي فرضت عليها ، ولهذا فلم يكن من العسير على مصر أن تثير الفتن بين هذه الشعوب الغريبة التي ناءت بتلك الأعباء . تلك الشعوب التي كان يحدوها الأمل في التخلص من وطأة هذه الجزية . ورأت أشور أن تدخل مصر يجب أن يوقف عند حده . ومن ثم ظهر ابن سنحاريب أمام أبواب القلاع الشرقية في الدلتا عام ٦٧٤ ق م . ولقد صد أول الأمر ورد على أعقابها ، ولكنه عاود الهجوم ، ورغم أنه مات قبل أن يدخل الدلتا إلا أن مصر سقطت في النهاية فريسة للجيوش الآشورية ، وأصبح حفيد سنحاريب لفترة من الزمن سيد النيل الأدنى .

ولم يأت عام ٧٠٠ ق م حتى كانت الامبراطورية الآشورية تحكم الهلال الخصيب بأسره وامتدت حول الخليج الصحراوي بل وشملت فضلا عن ذلك مساحة عظيمة من المناطق الجبلية الشمالية الواقعة بعدها وأدى إخضاع مصر إلى



شكل : ٥٠ - أقدم القنوات الصناعية المعروفة : أنشأها الملك سنحاريب

اكتشف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو أطلال هذه الاعجوبة التي تدل على المهارة الهندسية الفائقة في عام ١٩٢٣ . وكانت هذه القناة جزءا من مشروع سنحاريب الهائل للرى والذي كان يقصد من ورائه مد الحقوق التي كانت حول نينوى بالمياه من الجبال الشمالية التي تبعد ثلاثين ميلا . ولما وجد المهندسون الاشوريون أنه لا بد من نقل المياه فوق نهو صغير أنشأوا قناة حجرية هائلة يبلغ طولها حوالى ١٠٠٠ قدم وعرضها ٨٠ قدما . حيث تجرى فيها المياه بين سورين منخفضين يبلغ سمك كل منهما ٩ أقدام . وهكذا لم تكن المياه تجرى فوق النهر الصغير وكأنها فوق قنطرة فحسب ، بل كانت تجرى أيضا عبر وادى النهر الذى كان يبلغ اتساعه ١٠٠٠ قدم .

(صورة لما كانت عليه عند تصميمها - عن سيتون لويدي Sorbu Lloyd)

ضم وادى النيل الأدنى فى الغرب . ولكن مصر كانت بعيدة جدا وكانت أصعب من أن يحتفظ بها لوقت طويل ولما كانت الغزوات والفتوحات الآشورية تستند إلى قوة عسكرية مستمرة ، فقد كان فى مقدورها أن تبقى خلال جيلين كاملين بعد سرجون الثانى ، فقد كانت هذه الفتوحات أعظم الإمبراطوريات التى عرفها العالم اتساعا وسطوة .

ولم يكتف سنحاريب بتوسيع نطاق القصور الملكية القديمة التى آلت إليه عن أجداده سواء فى آشور أو سارجنبرج . بل كرس جهوده لإصلاح وتجميل مدينة نينوى فى شمال آشور . وجعل منها عاصمة الإمبراطورية الآشورية الذائعة الصيت . ولكى يضمن للمدينة مورداً مائياً كافياً وصالحاً بالأنهار التى تجرى من الجبال الشمالية وذلك ببناء قناة صناعية هائلة .

وقامت على ضفاف نهر دجلة قصور ضخمة هائلة ومعابد ذات أبراج مرتفعة مما أقامه الأباطرة الآشوريون ، وكانت أسوار نينوى الشاهقة الضخمة التى أنشأها سنحاريب تمتد قرابة ميلين ونصف على ضفاف نهر دجلة ، كما أن طول هذه الأسوار داخل المدينة بلغ قرابة ثمانية أميال . وجعل سنحاريب من قصره الفخم مركزاً يحكم منه العالم الآسيوى وجميع الشعوب الخاضعة له . بيد من حديد .

وكانت إدارة هذه الإمبراطورية بأسرها تتركز فى ديوان الملك ، الذى وضع نظاما للرسائل الملكيين . وشرع فى إنشاء الطرق وتمهيدها . وكان ذلك أول عهد لآسيا بإنشاء الطرق وما زال أحد هذه الطرق باقيا إلى الآن أنشأه سرجون الثانى ليصل نينوى بمدينة القصر . سارجنبرج ، وعين الملك فى جميع النقاط الهامة على الأطراف الرئيسية موظفا ليقوم بالإشراف على جميع الأعمال الملكية وبتسيير إجراءاتها . وبهذه الطريقة أمكن ضمان سهولة أمر انتقال الرقم البريدية ، والمحاصيل والبضائع

التي تتعلق بالقصور الملكية . وكان هذا النظام بداية لنظام البريد الذي كان له أن يبقى معمولاً به عدة قرون في الشرق الأدنى . وكان الامبراطور الآشوري يتسلم الرسائل ويلتقي التقارير مما يزيد على ستين حاكماً للولايات والمناطق التي كانت تحت حكمه ، وذلك عدا الرسائل التي تصله من عدد كبير من الملوك المغلوبين الذين كان يسمح لهم في بعض الأحيان أن يظلوا في مراكزهم وعلى عروشهم تحت السيطرة الآشورية ، وبما وصل إلى أيدينا عدد من الرسائل التي كتبها سنجاريب نفسه ، عندما كان ولياً للعهد ، وأرسلها إلى أبيه الملك سرجون .

وكان هدف الدولة ومهمتها الكبرى هو الاحتفاظ بجيش قوى وفي الواقع كانت الدولة عبارة عن جهاز عسكري هائل ، يلقي الرعب في قلوب الناس بدرجة لم يعرفها العالم حتى ذلك التاريخ . ويمكن أن تتصور مثل هذا الموقف ، وأن تقربه إلى أذهاننا إذا تخيلنا أن وزارة الحربية تصبح الإدارة الحكومية المركزية في عاصمة المملكة وأن الحكومة كلها تركز جهودها في هذا السبيل . وهنا يجدر بنا أن نعيد ذكر حقيقة هامة ساعدت في الوصول إلى هذه النتيجة ، وهذه الحقيقة هي أنه نتج من إلتقاءهم بالحيتيين في الغرب أن بدأ استعمال الحديد بين الآشوريين ومن ثم كانت القوات الآشورية هي أقدم الجيوش الكبيرة في العالم التي زودت نفسها بأسلحة حديدية .

وفي قاعة واحدة لحفظ الأسلحة في قصر سرجون عثر على ما يقرب من مائتي طن من الأدوات الحديدية ، ولهذا يمكننا أن نقول أن قيام الإمبراطورية الآشورية وسيادتها كان إلى حد كبير راجعاً إلى ظهور الحديد واستخدامه .

كان الجزء الأعظم من الجيش الآشوري يتكون من رماة بعضهم جنود من حاملي الرماح المدججين بالسلاح وحاملي الدروع ، وإلى جانب هؤلاء كان الفرسان

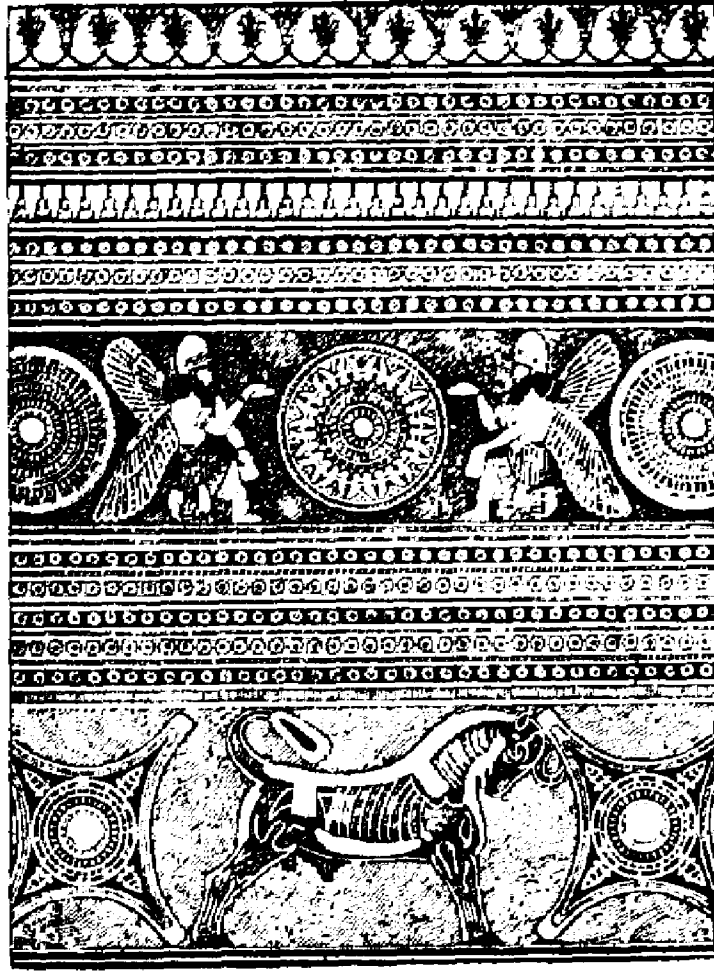
وراكبو العربات من نينوى الذين كانوا بمثابة السوط الذى يلهب ظهر الشرق .
ولاول مرة فى التاريخ استخدم الآشوريون المنجنيق وغيره من آلات الحصار .
وكان من اليسير على هذه الآلات أن تصدع الأسوار الطوبية فى المدن الآسيوية
تلك الأسوار التى جففتها حرارة الشمس . وتفتح فيها الثغرات ، وكان من العسير
أيضا على أية قلعة مهما كانت مناعتها أن تقاوم طويلا هجوم المشاة الآشوريين
الذين اشتهروا بالشدة فى الحروب .

فالى جانب الأسلحة الحديدية والآلات الحربية اتسم الجنود الآشوريون
بقسوة فطرية خاصة ألقت الرعب والهلع فى نفوس أهل غرب آسيا وجعاتهم
يفزعون من ذكر قوات النينويين^(١) وأينما ذهبت الجيوش الآشورية تركت
وراءها ذيلا من الخرائب والأطلال . وبين الأكوام التى يتصاعد منها دخان
الحرائق والتى كانت يوما ما مدنا عامرة ؛ وضعوا صفوفًا متراسة من القوائم
الخشبية علقوا عليها جثث الحكماء الثائرين بعد سلخ جلودهم وهم أحياء ، بينما ارتفعت
حولهم الأكوام القتلى ؛ التى وضعها الجنود الآشوريون فوق بعضها ليشيدوا بذكرى
النصر العظيم . ويحذروا الآخرين من الاحتجاج أو الثورة . وخلال سحب من
الغبار ، ارتفعت على جميع الطرق الرئيسية فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، رأى سكان
الممالك المهزومة قطعانا ضخمة من الماشية ، والخيول والحير ، والماعز ، والخراف ؛
ومعها قوافل طويلة من الجمال المحملة بالذهب والفضة التى استولوا عليها من البلاد
المهزومة وتجتمع كل هذه وتلك فى قصر الملك فى نينوى . ويسير أمام هذا الركب
زعماء هذه الممالك المغلوبة ؛ وقد ربطوا حول أعناقهم رؤوس أمرائهم السابقين
التي فصلوها عن أجسادهم ، ولا شك أن هذه الثروات المسلوبة كانت ضرورية لقيام
الجيوش وسد حاجاته ، ولكنهم استخدموها أيضا فى أغراض أخرى غير حرية .

كانت القصور الآشورية معمارية توحى إلى الناظر بقوة منشئها الطائلة وكانت الأقواس الثلاثية تقام في مدخل القصور الآشورية . وكانوا يغطون جدرانها بطبقة من الطوب المزجج ذى الألوان الزاهية، وكانت هذه الأقواس هى الأصل الذى أخذ عنه الرومانيون فيما بعد عندما أقاموا أقواس النصر . وعلى كل من الجانبين قامت تماثيل من المرمر على هيئة ثيران ذوى رؤوس آدمية ؛ وفوق كل هذا ترتفع أسوار شاهقة تعلوها الأبراج مبنية من الطوب المحروق . يراها الناس فى المدينة الملكية من مسافة بعيدة .

أما فى داخل القصر فقد كان هناك أفريز سفلى مزخرف يمتد على الجدران مشات من الأقدام وعليه صور بارزة منحوتة فى المرمر . وعثر المنقبون الآثريون فى نينوى فى تل واحد على واحد وسبعين ردهة من ردهات القصر ، وأزاحوا النقب عن ميلين من هذه الصور البارزة المرمرية التى نقلوا كثيرا منها إلى المتحف البريطانى .

وتمثل هذه النقوش أعمال الأباطرة سواء فى الحروب أم فى ميادين الصيد ، وتشابه الصور الآدمية تشابها يبعث على الملل وقلبا نرى إحساسا على الوجوه . وربما كان الطابع الرسمى للصور وحجمها الكبير ، حالادون رسم صور معبرة دقيقة ، وعلى أية حال فإن الحيوانات المفترسة التى نحتها المثالون الآشوريون كانت ناجحة ونجح هؤلاء الفنانون فى إظهار طباعها القمائية . ولقد سرت طبيعة النمر فى دماء الآشوريين حتى ظهرت فى رسومهم المنحوتة . ومن جهة أخرى ، تعتبر التعبيرات العاطفية الألم والعذاب التى تظهر فى ملامح بعض هذه الأشكال الحيوانية الرائعة . نصرأفنيا جليلا . وإن كان المرجح أن المثال الآشورى قد توصل إليه إلى حد ما ، عن طريق دراسة الاسود والثيران الفخمة التى كانت ترسم على الأختام البابلية



شكل : ٥١ - زخرف حائطى فى دار موظف فى بلاط سرجون الثانى

تتكرر هذه الرسوم الزخرفية على جدار من حجرة تبلغ مائة قدم طولاً. ويلاحظ أن أشكال الميران والمعبودات المجنحة صوّرت فى أوضاع يتلو بعضها بعضاً مكونة حلقات متتالية فيها كثير من الانسجام الإيقاعى فى الألوان من اكتشاف المعهد الشرقى فى دور شروكن : وهى مدينة خورسباد الحالية والصورة من عمل التمان (C.B. Altman)

القديمة في عهد سرجون الأول منذ الفين من السنين ، وحقيق بنا أن نقر بأن تصوير الحيوانات في فن النحت الاشورى قد فاق مثله في أى شعب من شعوب العالم القديم .

وكثيراً ما كان يرسم فوق الافريز المنحوت في جدران القصر رسوم ملونة ذات مناظر جميلة وكانوا يضعون طبقة من الطلاء الأبيض فوق الطبقة الطينية السطحية لتصبح أرضية للمناظر المرسومة ، وتتكون الزخارف بصفة عامة من نطاقات وأشربة ملوءة بالأشكال مثل المعبودات المجنحة أو الغزلان أو الثيران الخ . أو يملأونها بزخارف مثل الأشكال الوردية ، أو التي تشبه النخيل . أو الأقراص أو الدوائر المقسمة أو ما يشبه زخارف الأسوار .

وقد اكتشفت بعثة المعهد الشرقى فى خورسباد منذ عهد قريب فى دار موظف فى البلاط الملكى رسماً على حائط يمتد بطول الحجرة ، والألوان المستعملة هنا هى الأحمر والأزرق والأبيض مع تحديد الأشكال باللون الأسود ، وقد دل التحليل الكيماى على أن اللون الأحمر مأخوذ من سلفات الزئبق ، وأن اللون الأزرق مأخوذ من حجر اللازورد ونجح الآشوريون نجاحاً كبيراً فى استعمال الألوان عند رسمهم للمناظر الملونة ، ونرى انسجاماً جميلاً فى ترتيب المواضع المرسومة .

ومن الطبيعى أن يقتبس الآشوريون كثيراً من الحضارات التى سبقتهم إذ ظهر فى صناعة تزجيج القوالب الملونة من مصر وبابل منذ أمد بعيد ، كما نرى أن كثيراً من الرسوم الزخرفية فى أعمال الفنانين الآشوريين مصرية الأصل ، كما أن قطع الأثاث المطعمة بالعاج والأبانوس التى كان يضعها العمال الفينيقيون تكشف أيضاً عن أصلها المصرى ، وكان العمال الفينيقيون فى نينوى يقومون بصنع أطباق من البرونز المنقوش بمهارة فائقة ، وهم فى ذلك يجمعون بين الطرازين المصرى والآشورى ،

ويخبرنا سنجاريب أنه كان لديه في قصره « بوابة بنيت على نمط قصر حيتي » ، كما أن أسلافه طالما شيدوا بوابات مماثلة لتلك التي رأوها في دولة الحيتيين في الغرب ، وكان من أهم خصائص الأباطرة الآشوريين قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية عنهم .

وقد تمكن سنجاريب عن طريق القناة الصناعية التي أنشأها أن يروى الحدائق الغناء التي زرعها على شاطئ النهر قبل نينوى وبعدها ، وفي تلك الحدائق استنبت كثيراً من الأشجار والنباتات الغريبة من جميع أنحاء أمبراطوريته العظيمة ، وكان من بين هذه الأشجار شجيرات القطن التي قال عنها « إن الأشجار التي تحمل الصوف جناها القوم ومشطوا صوفها لصنع الملابس » . وجاءوا بهذه الأشجار من الهند . وهكذا نرى أن القطن ظهر أول مظهر في العالم القديم في ذلك الحين ، ذلك القطن الذي يساهم بنصيب وافر في إقامة صرح مجدنا الاقتصادي ^(١) .

واهتم الآشوريون أيضاً ببعض الفنون السامية ، فازدهر الأدب لديهم ، وشرع سرجون الثاني مثلاً في جمع مكتبة من الرقم عليها مؤلفات قديمة ، وسار من جاء بعده على منواله وظلوا على شغفهم بالأدب واهتمامهم به . ويفخر « آشور — باني — بال » ، حفيد « سنجاريب » ، وآخر الأباطرة الآشوريين العظام ، بأن أباه لم يهمل له سبل تعلم الفروسية وإتقان رمي القوس والسهم فحسب . بل عليه الكتابة على الرقم وأدبه بأدب العصر وحكمته .

وكشفت الحفائر بين أطلال حجرات مكتبة « آشور — باني — بال » ، في نينوى عن مجموعة من اثنين وعشرين ألفاً من الرقم ظلت ملقاة على أرضها ألفين وخمسمائة سنة ، وهي موجودة الآن في المتحف البريطاني . وجمع الملك في هذه

١ - لا شك أن شجرة القطن هذه تنسب إلى المثل الذي يسمو في المناطق الدنيا من الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الأمريكية .

المكتبة المؤلفات الدينية والعلمية والأدبية وفق نظام دقيق — حسب رغبته — وكانت دون ريب أقدم مكتبة عرفتها آسيا . لقد كان الآشوريون أعظم تقدما في هذه الأمور من البابليين ، كما أن الحضارة الآشورية كانت أبعد من أن تكون ترديدا وصدى للحضارة البابلية .

يبد أن الأباطرة الآشوريين أتوا بخطأ سيامى جسيم ، وإن كانوا لا يختلفون في ذلك عن كثير من الحكام الذين جاؤا بعدهم ، لأن حروبهم أدت إلى القضاء على السكان الذين كانوا مهرة في الصناعة والذين كانوا مصدرا للثروة والرخاء ، حدث هذا أول الأمر في نطاق بلادهم ، ثم في جميع أنحاء الممالك التي أخضعوها . ورغم اهتمام الأباطرة الآشوريين بإدخال نوع جديد من النسيج مثل القطن إلا أنهم لم ينشئوا أو بالأحرى لم يكن في إمكانهم إقامة صناعات أو معاملات تجارية كالتي قامت في بابل .

فلقد كان الشعب بصفة عامة شعباً زراعياً وكان من اليسير أن يستدعى الرجال من مزارعهم لفترات قصيرة لحماية حدودهم . فلما اتسعت الأمبراطورية لم تكن هذه الجماعات من القوات المؤقتة كافية لأداء الغرض المرجو منها .

وأصبح الزراع يستدعون بصفة دائمة من حقولهم ليمثلوا مراتب جيش دائم أخذ في النمو المطرد . وليس من المستبعد أن الطبقة الحاكمة قد حرصت على شراء الملكيات الزراعية الصغيرة بغية إنشاء ضياع شاسعة ، فإننا نقف على أنباء قنوات قد أهملت ، وعن حقول مهجورة ، عندما نقرأ عن جهود سرجون الجبارة لإعادة المجتمعات الزراعية القديمة . ورغم كل هذا فإن هذا التوسع الحربي الذي قامت به الأمبراطورية وصل بها إلى درجة من الانساع أصبح من العسير معها على هذا الجيش الدائم أن يحمي حدودها .

ولما توالى أنباء الثورات الجديدة ، أقلقت الحاكم في نينوى وجعلته يأمر

رعاياه في الممالك الأجنبية بدخول الجيش ، وليس يدهشنا بعد ذلك أن تأخذ قوى
الامة الاشورية في الضعف وفقد القوة الكامنة فيها ، وقد رأينا هذا الجيش الذي
بلغ تعداد الأجانب فيه حداً أصبح يهدد الامبراطورية بالخطر ، ورأينا انهيار
الصناعات واضمحلالها وهجر الحقول التي أصبحت معطلة ، فضلاً عن أن الحركة
التجارية في البلاد باتت في قبضة التجار الاراميين ، وأن اللغة الارامية ذاعت بين
المدن في جميع أنحاء الامبراطورية وانتشرت بها ، حتى في مدينة نينوى ، وطفنت
على اللغة الاشورية نفسها

وإلى جانب هذا الضعف الداخلي ، كانت تهدد الامبراطورية أخطار داهمة
من الخارج . وهذه الأخطار جاءت ، كما درجت العادة منذ القدم من كلا جانبي
الهلل الخصب . فقد استمرت القبائل الارامية في اعتلال بعض أجزاء
الامبراطورية شيئاً فشيئاً ، بعد أن نزحت من الصحراء .

ويدعى سنحاريب بأنه استطاع في حملة واحدة أن يأسر مائتي ألف أسير من
بابل معظمهم من الاراميين وفي نفس الوقت كانت هناك قبيلة صحراوية تعرف
باسم كلدی (Kaldi) نطلق عليها الآن اسم الكلدانيين قد شرعت منذ عدة
قرون في الاستقرار التدريجي حول رأس الخابج الفارسي والإقامة على شواطئه في
سفوح الجبال الشرقية ، وكان هؤلاء الكلدانيون بدواً ساميين أخذوا يلعبون نفس
الدور الذي يلعبه الأكديون إزاء أكد والأموريون إزاء بابل .

ومن جهة أخرى ، كانت القبائل والجماعات الهندية الأوربية موجودة دائماً
عبر الجبال الشمالية ، منذ أيام الفرسان الميتانيين . حقيقة أن الميتانيين اختفوا منذ
أمد بعيد ولكن قبائل غيرها وهي قبائل الميديين والفرس من الشعوب
الهندو أوربية كانت في طريقها إلى القوة والسلطان .

وكان لهذه الحركات أثر بالغ في زعزعة الامبراطورية الاشورية دون شك ،

وكان المصريون قد تخلصوا من عبء السيطرة الآشورية . ولكن فرعون مصر ؛ وقد أفرغته جماعات البرابرة الشماليين ، إضطر إلى إرسال جيش لمديد المساعدة للآشوريين .

ولم يحل عام ٦١٦ ق . م حتى كان الكلدانيون قد سيطروا على بابل وأصبحوا سادتها . ولقد زحف « نبوبولاسر Nabopolassar » الملك الكلداني الجديد في بابل ، الذي لقب نفسه « بملك أكد » ، زحف ضد الآشوريين وهزمهم في موقعتين ، وبلغت فتوحاته بعدها حتى عاصمتهم القديمة أشور ، ولكنه فشل في الاستيلاء على هذه المدينة ، وعلى أية حال فقد زحف الميديون من الجبال الشمالية في السنة التالية (٦١٤ ق.م) وساروا بإزاء نهر دجلة ثم استولوا على أشور ، ووصل (نبوبولاسر) متأخراً فلم يشترك في الهجوم ، ولكنه عقد تحالفاً مع سياكسارس (سياخار) (Cyaxares) وهاجما مدينة نينوى سوياً .

ولما كانت مدينة الآباطرة الآشوريين القوية قد عانت جيلاً كاملاً من الانهيار الداخلي ، فقد سقطت (عام ٦١٢ ق.م) بعد أن قاومت دون طائل هذه الهجمات المتكاثفة من الخارج . وعلى لسان النبي العبراني ناحوم (الإصحاح الثاني ٨ ، ١٣ والإصحاح الثالث جميعه) نسمع صدى صيحة الفرح التي ترددت في جميع أنحاء الإمبراطورية من بحر قزوين حتى نهر النيل عندما رأت الأمم أن السوط الرهيب الذي ألهب ظهور شعوب الشرق لم يعد له وجود . وكان سقوط نينوى سقوطاً أبدياً لا مرد له وعندما مرّ اكسينوفون (Xenophon) وصحبه العشرة آلاف أغريقى بهذا المكان بعد مضي قرنين من الزمان لم تكن الأمة الآشورية بعد ذلك اليوم سوى أسطورة غامضة ، ولم تكن نينوى عاصمتها سوى كومة هائلة من الأطلال لا تختلف عما نراها عليه اليوم . وفرت فلول الجيش الآشورى صوب الغرب وظلت فترة قصيرة من الزمن تقاوم بعد أن ساعدتها القوات المصرية ، ولكن ذلك

لم يدم طويلاً فانهزموا وانتهت القوة الآشورية . حتى اللغة الآشورية كان مآلها إلى الزوال ، وأصبحت الآرامية هي اللغة التي يتحدث بها سكان دولة آشور . كما أصبحت أيضاً لغة بابل . وهكذا انتهى الفصل الثاني الكبير للتاريخ على ضفاف بلاد الرافدين ولم يكن قد استغرق إلا أقل من قرن ونصف من الزمان (من حوالى ٧٥٠ حتى ٦١٢ ق. م)

وبالرغم من أن سقوط الإمبراطورية الآشورية كان سقوطاً مباغتاً وعنيفاً إلا أنه ترك الأثر الذى تقع فى غرب آسيا فى حالة تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة التى وجدها عليه الأباطرة الآشوريون الأوائل .

تجمعت الشعوب الواقعة فى الناحية الشرقية فى البحر الأبيض المتوسط وخضعت لسلطة حاكم واحد ، جعلها تتصل ببعضها اتصالاً وثيقاً مستمراً صبغها كلها بصبغة متشابهة وأصبح لبلاد الشرق الأدنى — للمرة الأولى فى تاريخها — حضارة عامة بينها .

ومن الطبيعى أن تتقدم أساليب الحكم وأنظمتها فى مثل تلك الإمبراطورية ، وقد استفادت من ذلك الإمبراطورية الفارسية التى نشأت بعد سقوط دولة آشور بستين سنة ، واستمرت على اتباع ما كان هناك من تنظيم فى إدارة الحكومة . فقد خططت الإمبراطورية الآشورية خطوات واسعة وخاصة فيما يتعلق بنظامها الحربى العظيم فى سبيل الفكرة التى كانت منذ ذلك الحين فى نمو مطرد ، ألا وهى ضم قوة العالم فى قبضة يد واحدة ، هذه الفكرة التى كان لها أن تتحقق فى النهاية على يد الإمبراطورية الرومانية .

وبالرغم من فظاظة الحكم الآشورى وقسوته ، فإنه كان خطوة فى تقدم الحضارة ، فإن بناء القصور الفخمة فى نينوى وفيما جاورها من المناطق كان الصفحة الأولى فى

مجد المعمار في آسيا . وفي نفس الوقت كان لدى نينوى أول المكتبات التي عرفت هناك ، ويجب ألا ننسى أن الحكم الآشوري — كما سنرى فيما بعد — كان سبباً في ذلك الصراع الدولي الذي مكن اليهود من أن يتصوروا إلههم تصوراً كله مجد وإجلال ، وذلك عندما قارنوه بإله الحرب الآشوري . ذلك التصور الذي له منذ ذلك الوقت أعمق الأثر على تاريخ الإنسان .

الامبراطورية الكلدانية

أسس الكلدى ، أو الكلدانيون ، سادة بابل الجدد ، امبراطورية جديدة كانت حياتها القصيرة هي الفصل الثالث الكبير في تاريخ بلاد الرافدين ، لقد كانوا آخر السادة الساميين الذين حكموا بابل القديمة .

وأقام الكلدانيون عاصمتهم في بابل . التي أعادوا إنشائها بعد تدميرها على يد سنجاريب وسموا بلادهم أكد ، ولكننا نطلق عليها اليوم اسم كلديا ، . وفي عام ٦٠٥ ق . م وعلى مقربة من بلدة قرقيش Carchemish على نهر الفرات ، هزموا جيوش الغرب المتحالفة التي كانت تشمل فلول الجيش الاشورى تعضدها قوات مصرية . وهكذا شملت امبراطورية الكلدانيين الهلال الخصيب بأسره . أما فيما يتعلق بالميديين فقد تركوهم يحكمون الجبال الشمالية .

ولما قفل نبوخذ نصر راجعاً من انتصاره المبين في موقعة قرقيش بدأ ذلك الامبراطور الذي يعتبر أعظم الأباطرة الكلدانيين جميعاً ، حكمه (٦٠٤ ق . م) الذي استمر أربعين عاماً — وهو حكم بلغ فيه الرخاء مبلغه ، ووصلت قوة الامبراطورية إلى غايتها ، وليس أدل على ذلك من ذكره في التوراة . فقد كان نبوخذنصر إحدى الشخصيات العظيمة في تاريخ الشرق . ولما نفذ صبر نبوخذنصر إزاء تلك الثورات العنيدة التي قامت في الغرب والتي كانت مصر تؤازرها وتظاهرها . قام بحملات تأديبية ضد هذه البلاد وخاصة مملكة يهودا العبرانية الصغيرة . ثم نقل كثيراً من اليهود أسرى إلى بابل ، ودمر عاصمتهم ، اورشليم ، (٥٨٦ ق . م)

وبالرغم من الحروب الطويلة العنيفة التي خاضها نبوخذنصر ، وجد هذا الملك العظيم من الوقت متسعاً ومن المال وفرة ليوسع من نطاق بابل ويجمها . ورغم

أن نبوخذنصر قد قلد آشور في أشياء كثيرة إلا أنه فاق أسلافه الاشوريين في عظمة وأبهة المباني التي شرع في إنشائها . فقد أعاد بناء المعابد في الحى المقدس الشاسع ، حيث كانت تعبد الآلهة البابلية التي كانت تتمتع بتقديس تقليدى . وأنشأ طريقاً لمرور المراكب يصل هذه المعابد بالقصر ، ماراً ببوابة كبيرة هائلة تعرف « ببوابة عشتار » لأنها كانت مقامة باسم هذه الإلهة . وخلف هذه البوابة يقع القصر الملكى الشاسع ، وتقوم الدواوين الحكومية ، بينما ارتفع فوق الجميع المعبد الشاهق الذى كان فى الواقع ، وقد علاه معبد مردوخ ، كأنه برج حقيقى واستحق أن يسمى برج بابل . وزرع فوق سقف القصر الملكى أنواعاً كثيرة من النباتات الاستوائية الجميلة ترتفع على درجات الواحدة تلو الأخرى مكونة حديقة تأخذ بالآلالباب ، وكانت هذه الحديقة تطل على بوابة عشتار فزادتها جمالاً وبهاء . وهناك فى ظلال النخيل وأشجار الرخس التى توحى بالترف والدعة كان الملك ينعم بساعة من ساعات الراحة مع نساء بلاطه ويتمتع ناظره بعظمة مدينته . وتلك الحدائق المدرجة فوق قصر نبوخذنصر ليست إلا حدائق بابل المعلقة التى ذاع صيتها بين أهل الغرب حتى عدها الاغريق إحدى عجائب الدنيا السبع . وهكذا أصبحت بابل مدينة ملأى بالمباني الفخمة مثل مدن آشور ومصر .

وشهدت بلاد بابل مدينة كبيرة للمرة الاولى ، فقد وسع نبوخذنصر من نطاقها وأنشأ حولها الأسوار الضخمة المحصنة لحمايتها وتشمل هذه الأسوار سوراً يمتد من نهر دجلة إلى نهر الفرات عبر السهل المحصور بينهما . وفى نفس الوقت كان ليصل بين ضفتى نهر الفرات عند بابل قد أقام أقدم قنطرة عرفها الناس ، وليست تلك القوائم الحجرية المهدمة التى مازالت ممتدة فى بطن المجرى القديم لنهر الفرات إلا بقايا أقدم ما وصل إلينا من هندسة القناطر ، وكانت بابل نبوخذنصر هذه هى التى أدهشت هيرودوت بعجائنها بعد مضى قرن من الزمان ، تلك الدهشة التى نرى أثرها

في الوصف الذي كتبه هيرودوت لهذه المدينة . وتلك أيضاً هي بابل التي شاع ذكرها بين جميع الشعوب المسيحية ، على أنها المدينة الكبرى التي كانت مقراً لسبي العبرانيين ، ولم يبق من هذه الأبحاث التي ذاع صيتها بين العالمين سوى النذر اليسير ، وقد استمرت الأبحاث الأثرية الألمانية في هذه المنطقة من ١٨٩٩ حتى ١٩١٧ بيد أنها لم تكشف النقاب إلا عن أطلال ضئيلة لجدران من الطوب اللبن ، وباستثناء بوابة عشتار لم يبق هناك سوى بعض الآثار البسيطة التي لا يمكن الاستدلال منها على عظمة بابل ، ولا توحى بتلك الحياة المترفة السعيدة التي ازدهرت في يوم من الأيام في طرقاتها وميادينها العامة .

ويبدو أن الكلدانيين قد هضموا الحضارة البابلية واستساغوها ، كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين الذين وفدوا على هذا السهل القديم . فازدهرت التجارة وراجت الأعمال ، كما خطت الفنون والصناعات خطوات واسعة في سبيل التقدم والنهوض ، وعظم الاهتمام بالدين والأدب ، وسجلت مؤلفاتهم على رقم مكتوبة بالمسمارية ، كما جرت العادة منذ القدم .

وتقدم العلم تقدماً ملحوظاً في فرع خاص من فروعه وهو الفلك . فقد واصل البابليون العادة القديمة في محاولة قراءة المستقبل مستدلين بالأجرام السماوية . وكانوا ينظرون إلى الكواكب المعروفة إذ ذاك ، (عطارد ، والزهرة والمريخ ، والمشتري ، وزحل) على أنها القوى التي تتحكم في مصائر البشر ، كما أن الآلهة البابلية الخمسة الرئيسية ، كانوا يمثلون هذه الكواكب السيارة الخمسة .

ووصلت إلينا أسماء هؤلاء الآلهة البابليين على أنها أسماء الكواكب الخمسة ، ولكنها تغيرت عندما وصلت إلى أوربا فترجموها إلى كلمات تلائم الحياة الرومانية ، فأصبح كوكب عشتار ، إلهة الحب ، هو فينوس (الزهرة) ، بينما بات كوكب الإله الأعظم مردوخ كوكب جوبيتر (المشتري) وهكذا دواليك ، وظل علم

الفلك القديم حياً إلى يومنا هذا ، فتخرج من أفواهنا جمل دون تفكير في معناها مثل قولنا ، نجمة السعيد ، أو ، عمل بحمة نحس ،

ولقد ترك علم الفلك الكلداني أثراً لا يمحي ، في تقويمنا فيما يتعلق بالاسماء التي نطلقها على أيام الاسبوع . فهذه الكواكب الخمسة التي ذكرت منذ هنيئة بالإضافة إلى الشمس والقمر تكون مجموعة من سبعة أجرام سماوية ، كان كل منها إلهاً على جانب عظيم من الأهمية . ولما كانت العبادة الكلدانية قد انتشرت في سوريا وذاغت . فقد جرت العادة أخيراً على العبادة والتغنى بمدح كل إله منها في يوم خاص معين . وهكذا كانت عبادة كل إله من هذه الآلهة تتكرر بعد مرور سبعة أيام . ثم أطلق اسم الإله الذي يعبد في يوم ما على ذلك اليوم نفسه ، وهكذا أصبح اليوم المكرس لعبادة الشمس - الأحد [يوم day - الشمس Sun] وبات اليوم الخاص بعبادة القمر - الاثنين [يوم day - القمر Mon] وهكذا حتى نهاية الاسبوع ، وعرف اليوم الأخير المخصص لعبادة زحل باسم يوم ساتورن وهو يوم السبت . ولما كانت اللغة الإنجليزية قد وصلت عن طريق الشعوب الشمالية فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسية وظهرت في أسماء بعض أيام الاسبوع مثل (Wodon's day, Wednesday) (أى يوم الاربعاء) أو (Thor's day, Thursday) (أى يوم الخميس) ومنع هذا فإن هذه الاسماء جميعها ترجع إلى الآلهة البابلية القديمة التي ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشعوب الغربية يذكرونها كلما نطقوا باسم أى يوم من أيام الاسبوع .

وهناك ما هو أهم من ذلك ، فإن خدمات علم الفلك البابلي لم تقف عند ذلك الحد . بل أن هؤلاء الناس لاحظوا السماء وكواكبها إلى أن أصبح ذلك العلم بينهم أعظم من مجرد معرفة الغيب . وإذا رجعنا بالتاريخ إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد في عهد ملوك سومر وأكد نجد أن علماء الفلك في ذلك الوقت لاحظوا خسوفاً للقمر ، وهي حقيقة استفاد منها علماء الفلك المحدثين . بيد أن مثل هذه الملاحظات

كانت في ذلك العهد البعيد أمر صدقة واتفاق كما أنها لم تكن على جانب كبير من الصحة . فضلا عن أنها كانت لا تجرى وفق نظام ثابت . وبمرور الزمن جرت العادة على التحقق من هذه الظواهر على نطاق أوسع ، حتى جاء عام ٧٤٧ ق.م في عهد الملك البابلي نبوخذ نصر ، حين أصبحت هذه الملاحظات تدون بصفة دائمة وتسجل بدقة بالغة وتحفظ وثائقها في مكان خاص . ولسوء الحظ لم تبق لنا كل هذه المجموعة من السجلات ، وأقدم ما وصل إلينا منها حتى الآن هو رقيم يرجع تاريخه إلى عام ٥٦٨ ق.م وعليه أقدم المعلومات الفلكية الدقيقة . ونعلم الآن أن علماء الفلك الكلدانيين ظلوا يكتبون هذه الملاحظات فترة تربو على ثلاثمائة وستين سنة . وأصبحت هذه المجموعة أول سلسلة طويلة للأرصاء الفلكية ، وأول الوثائق ذات القيمة في الدراسات الفلكية . وفي الواقع لم يقم علماء الفلك المحدثون بمثل هذه الأرصاد الفلكية المستمرة خلال مثل هذه الفترة التي استغرقتها الأرصاد البابلية (١) وما هو جدير بالذكر أن هذا العمل العلى استمر حتى بعد أن فقد الشعب الكلداني استقلاله ووقع تحت سطوة الحكم الفارسي .

وهناك ما هو أعظم قدراً من جميع هذه المستندات الكثيرة والملاحظات ذلك هو استفادة علماء الفلك الكلدانيين منها قبيل عام ٥٠٠ ق.م وبعد أن مضى على جميع هذه الأرصاد بصفة مستمرة ما يقرب من المائتي والخمسين سنة ، استطاع أحد الفلكيين الكلدانيين ويدعى « نبو - ريمانو Nabu-rimannu » أن يستخدمها في وضع جداول لتحركات الشمس والقمر ، سجل فيها حسابه للوقت الذي يستغرقه هذان الجرمان السماويان في دورتيهما اليومية والشهرية والسنوية وهلم جرا ... كما أرخ أيضا وقت كسوف الشمس وخسوف القمر ، وأوقات وقوع بعض الأحداث

١ - ان السلسلة الوحيدة التي استغرقت وقتا طويلا وكانت تقوم بصفة مستمرة لتلك هذه الأرصاد ، والتي يمكن أن تقارن بسلسلة الكلدانيين الفلكية هي الأرصاد الخاصة بمنتصف النهار في جرينتش بانجلترا التي بدأت عام ١٧٥٠ م

الفلكية الهامة . لقد حسب طول السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوما ، وست ساعات وخمسين دقيقة ، وواحد وأربعين ثانية . وهذا الجدول الزمني الرائع الذى وضعه نبو - ريمانو كان أقدم بحث علمى ذا قيمة انشائية فى علم الفلك وحوى عظمة لم يصل إليها العقل البشرى من قبل .

وحسابات نبو - ريمانو قاربت الصواب إلى حد يدعو إلى الدهشة ولنضرب مثلا ببعض أشياء فى الدورة السنوية للشمس والقمر ، فإن الأرقام التى ذكرها فى جدولها لم تفرق إلا أقل من عشر ثوان خلال العام كله . بيد أنه بعد مضى ما يزيد قليلا عن قرن من الزمان ، وضع فلكى آخر كلدانى الأصل اسمه « كيدينو Kidinnu » ، مجموعة مشابهة من الجداول كانت أكثر دقة من سابقتها . فلم تزد أرقامه التى بين بها الوقت اللازم لدورة الشمس والقمر السنوية عن ثانية واحدة من الوقت الحقيقى ، بل أن بعض حساباته لدورة الأجرام السماوية تعد أكثر دقة وصدقا من الأرقام التى كان يستخدمها فعلا الفلكيون المحدثون إلى عهد قريب . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الفلكى الكلدانى كان تحت تصرفه سجلات عن الأرصاد القمرية خلال فترة ثلاثمائة وستين سنة ، وهذا لم يتيسر لآى عالم فلكى محدث ، وأثبت كيدينو أيضا أن هناك اختلافا بين طول السنة التى يقاس بين الاعتدالين ، وبين قياسها على أساس الوقت بين مرتين لاقتراب الأرض إلى أدنى بعد ممكن من الشمس ^(١)

ولقد آلت الأبحاث الفلكية التى استغرقت قرنا من الزمان والتى قام بها الكلدانيون ، بالاضافة إلى حسابات نبو - ريمانو وكيدينو إلى الاغريق ، فانكبوا على دراسة مسائل هذين الفلكيين الكلدانيين اللذين أطلقوا عليهما اسمى : نبوريانس

١ - هذه الفكرة فى الواقع هى اكتشاف التغير البطئ فى درجة ميل محور الأرض وهو التغير الذى يسمونه عادة قبل تسليم الاعتدالين

Naburianos وكيدناس Kidenas وعندما حاول المهندس الأغريق ميتون Meton أن يدخل تقويمًا عليا في أثينا اقتبس طول سنته من جداول نبو - ريمارنو ووصف أحد علماء الفلك المحدثين هذين الفلكيين بقوله : « لها كامل الحق أن يوضعا بين أعظم الفلكيين » ، إن هذين الكلدانيين اللذين أطلعا البشرية لأول مرة في التاريخ على نظام ثابت لعالم الكواكب وأصبحا مؤسسي علم الفلك ، يجدر بنا أن نذكرهم باحترام وأن تظل أسماؤهم خالدة بعد أن عفت ذكرى ملوك العالم القديم ومحاربوه .

وبينما نجد أن دولة الكلدانيين فاقت في مضمار العلم كل ما جاءت به آشور ، ونجد أن فن المعمار في بابل الكلدانية قد تأثر إلى حد بعيد بمؤثرات آشورية . بيد أن الكلدانيين قد تصوروا أنهم بعملهم هذا يعيدون مجد الحضارة التي قامت في بابل أيام حمورابي ، إذ شغف الكتاب باصطناع أسلوب قديم في الكتابة ، واستخدام تعبيرات عتيقة ، وكان الملوك يحفرون تحت أسس المعابد سنين طويلة ، بغية الحصول على الوثائق القديمة التي توضع في أسس البناء وقواعده (مثل وثائق حجر الزاوية لدينا) والتي دفنها ملوك العصور الغابرة .

وإذا اعتمد شعب على الماضي فلا يعني ذلك شيئاً سوى أنه في طريق الاضمحلال ، فعلى اثر موت بنوخدنصر (عام ٥٦١ ق . م) . الذي يعد عهده ذروة الحضارة الكلدانية ، يبدو أن البلاد المتحضرة في الشرق الأدنى قد فقدت الكثير من قوتها وقوتها السابقتين ، وعجزت عن أن تسير إلى الأمام أو أن تسجل انتصارات حضارية جديدة ، أو تكتشف سبلا للمعرفة لم يصل إليها من عاشوا قبلهم ، مثلما كانت تفعله هذه الشعوب ، أي شعوب الشرق الأدنى ، خلال ثلاثة عصور زاهرة على ضفاف النيل ، وثلاثة عصور أخرى مشابهة على ضفاف الرافدين . وفي الواقع

كانت قوة الشعوب السامية وقدرتها على التحكم في العالم القديم وأهله على وشك
الاقتراب من نهايتها ، وأوشكت أن تخلق السيل أمام شعوب جديدة من العنصر
الهندو الأوربي الذي رأينا بعضاً من أقوامه — حكام الميثاني — يظهرون في
الهلل الخصب .